الست فلة

الفائزة بالجائزة الأولى لنادى القصة

بقلم : غنيم محمد غنيم

« .. ودخلنا الى رئيس القلم

يا ست فلة

نسأله عن الموضوع

وقال لنا .. ان التعزيز سيشملنا
وانه كتب فى حقنا تقريرا عظيما
ولا تبقى بعد ذلك الا موافقة المدير
ولما طلعنا للمدير .. ياست فلة
سلم علينا

وقال لنا ان أعمالك مرضية
يا سيد اسكندر
وتقريراتك جيدة
وعلاوتك يا سيد اسكندر
ثلاثة جنيهات
افرحى يا ست فلة
فسوف ننتعش ونتبجبح »

قال هذا ويده تداعب شعر فلة الغزير الناعم ، ونظرته كلها الهناء . وفلة ليست زوجته فان زوجته قد فرت مع أحد الرجال منذ سنوات . لقد أحبها وقدسها ، وأحاطها بالطهر والعفاف ، ولما تزوجها كذلك أحاطها بالطهر والعفاف ، لم يتخذ منها امرأة كما يتخذ سائر الرجال ، بل ظلت قديسة . الصلة تسمو عن صلة الجسد والرباط يترفع عن أن يكون ماديا ، فكيف يتحول ذلك الاحساس العطرى الأثيرى الرفيع ، كيف يتحول بطقوس تافهة فارغة ... يتحول فى لحظة قصيرة الى نوع من التمزيق والشق والاعتصار كيف بكلمات سخيفة كاذبة يطلقون حيوانية الانسان بمخالبها وأنيابها وعرقها الشبق اللزج .

ولا يزال يقدم لزوجته صور العفاف والسمو فى كل لمسة ، وكل نظرة ، وكل حديث . واتضح ـ بعد ذلك ـ ان حبيبته ليست قديسة كما اعتقد ... وفرت مع رجل .

فلة اذن قطة صغيرة من أطفال القطط .. مرحة عابثة ، جميلة غزيرة الشعر ، صار السيد اسكندر يحدثها على النحو الفائت ، الا أنها كانت غائبة الذهن عن الموضوع ، لا تتابعه بالاهتمام المرجو .. عيناها معلقتان بصرصور يسعى فى ركن الردهة ، رفعت له أذنيها فى تحفز .. واختلج جسمها الصغير النشط ، وانفلتت من تحت كف السيد ، وهجمت على الصرصور

.. تداعبه مداعبة مبدئية . وثب اسكندر من الأريكة وجرى وراءها يمنعها من الصرصور ، وأعادها الى حجره يؤنبها فى تؤدة وحنان .

« قلنا ان الصراصير لها النفتالين

كما أن الفيران لها السم

أما اذا جعنا نحن ... يا ست فلة

فلدينا الحليب ، ولدينا البقسماط

واذا طلبنا السمك ، نحضر السمك

واذا اشتقنا للدجاج والحمام ، فلن نتأخر .. يا ست فلة »

واستجابت فلة للحنان الذى أخذ يدره صاحبها ، فاتكأت على جانبها ، وبدأت تناوش وتلاعب ، بأسنانها الشوكية الصغيرة ، جعلت تعض كف اسكندر ، وتضربه بأرجلها الصغيرة .. التذ بذلك أيما لذة ، وهى تدفع يده برجليها الخلفيتين .. لهما قوة طفولية حنون .

لم يكن بالشقة غير اسكندر وقطته .. واسكندر موظف ، صوته رفيع ضعيف ، وهو متوسط الطول والنحافة ، وجهه مستدير مضغوط ، سماته مرهفة هشة ، يخفى عينيه بمنظار أخضر قاتم كأنه أسود منظار كبير مستدير ، كأنما يريد أن يمنع العالم .. أن يكفه عن نفسه . واسكندر هذا منطو .. انطوائية انهزامية عن ضعف أسلحة ، ليس لديه شوكة ولا ناب ، غير ثورة جياشة فى أعماقه يشعلها ضد نفسه ، فهى تأكله كما تأكل الطبيعة صم الصخر ، تبريه وتلحاه وتؤثر كثيرا على عقله ، فهى تلعقه لعقا ، كما تلعق القطة بلسانها المبردى .

عواطفه كلها ممنوحة بسخاء للقطة .. مراقة عليها ، والقطة كذلك تحب صاحبها وتألفه كأنه قط .

كانت للسيد تهويمات تفك الرباط عن عقله ، فتتداعى اليه قصة زوجته « لم نقصر فى حقها

يا ست فلة

لكنها خانتنا ، وفرت مع عشيقها

وأنت بالطبع لا تفهمين معنى عشيقها

انه لص . أضرى من اللصوص .

ومع ذلك يحميه القانون

ويعجب الناس به كأنه فاتح منتصر

ونضيع نحن تحت الأرجل ، يا ست فلة

لأننا لسنا غزاة ، ولا منتصرين

نحن نقدم الحب ولا نقدم الدنس

وهى دنسه

انت لا تعلمين الدنس

انه بشع .. بشع يا ست فله

تريد أن تكون عبده ، مستعبدة

تجعل من جسمها قارورة للصديد

ونحن لا نريد ذلك .. لا نريده ، يا ست فله

وهكذا ترين ، أننا كنا فى واد ، وهى فى واد

وفرت دميعات من عينيه ، ووجمت القطة ، فقد أحست بأن صاحبها حزين فاستجابت لمشاعر الحزن وامتصتها واستكانت الى جواره ، وهو يمدها بأحاسيس الحزن .

أخـــذت فله تنمو بمرور الأيـام ، بنموهـــا تغيرت كما يتغير كل كائن بنموه ، وأحس بذلك صاحبهـــا ·· تركت عبثها الذى لم تكن تفتر عنه ، ومرحها وتقافزهـــا فى كل مكان ·· أصبحت لها نظرات حالمـــة لينة · لم يكد السيد اســـكندر يولج مفتاحه فى الباب حتى تكون بانتظـــاره رافعـــة الذيل ·· تدور حول ساقيه فى التصاق قوى حميم · تتمســـح بهما تمســـحا ضروريا فى دورات قصيرة ، ثم انهـــا لم تعد تعابث بهروبهـــا متى أراد أن يمسك بها ·· كانت تستكين للمســـة ·· وتظهر خضوعـــا للمســـكة ·· وتستحلى ··

أخذ اسكندر يرتاب ارتيابا داخليا مبهما لهذه التصرفات ·· ارتيابا لايدرى له ســـببا محددا ·· أخذت تموء مواء غريبا ، يكاد يفصح ويبين فيصـــير كلاما ، نظرتها كانت تنطق لكن السيد كان يصرف انتباهه ويقسر ذهنـــه على ألا يبحث ·

المسألة صارت مريبة ، حتى لمسته المداعبة أصبحت تضعها فى وضـــع لم يكن من قبل ، فتأخذ فى مواء ضعيف متهافت وتمدد ظهرها ، وترمى بساقيها الى الخلف وتتطلع الى السيد ·· وصارت تتحكك بسيقان الموائد والكراسى · · والواضح أن أسلوب الطلب لا يحتـــاج الى ابانـــة ·· يكفى الكائن أن يريد فتتحدث جوارحه بمـــا يريد حديثـــا بليغا مفيدا لا يخطئه ملاحظ أبدا ، رغم هذا كان السيد يتجاهل

الا انه كان أمام الامر الواقع حينما رأى ذكور القطط تتجمع على بابـــه ، وتذكور على سلمه ·· ذكورا بغيضـــة ضخمة الرأس ، ناميـــة الجسم ·· كان يطردها اذا جاء بلا تمهل وبلا رفق ·

ولا يكاد يفتح الباب حتى يجد فـــلة رابضة الى جواره ، تتمسح بســـاقه حينما يدخل ثم تحاول أن تنفلت منه الى الخارج · فيسرع الى اغلاق الباب ·· ويداعبها · وهو يخفى غيظه ، فلا يجد منها غير النظرة الحائرة الســـاهمة ، والتمطى والتمرغ المستسلم ·· فيعمد الى الترفيه عنهـــا ، وتقديم مزيد من اللبن والطعـــام والحلوى ، ويحـــاول أن يسليها ·

« آه ··· لقد كبرت يا ست فله

ونحن نخاف عليك من التسلل الى الخارج

تفرست هذه النمور الرابضة

يا ست فله

وانت رقيقة مرفهة

ليس لك قبـــل بوسائلها الشريرة الوحشية »

وكثيرا ما كانت تعاف الطعام والحلوى وتدور فى الحجرات تموء مواء خافتـــا مرتعشـــا ·· حتى اذا سمعت نداء خارجيا من قط رابض ، قفزت بسرعـــة الى الباب وأخذت تجيبه وهى تتمسح بخشب الباب ، وتموء مواء مرتعشـــا كأنها تسكبه من أعماقها رغوة ساخنة تتدفق ، وترجع الى صاحبها تستجديه وتستعطفه ، تطلب منه أن يفتح الباب·

حينئذ تشتعل نيران الغيرة فى قلب اسكندر ، وتنقلب فى داخله عاصفة متلفة هوجاء ، فيحمل هراوة ويخرج الى السلم يطرد القطط ·

وكان قط عجوز ضخم الراس ، أعور العين ، بادى الاجرام والشراسة، هو الذى يداوم على الحضور ويربض الى جوار الباب ، يناجى قطته وينادیها ٠

ذات يوم غافلته القطة فتسللت من بين ساقيه فى خفة ، ولم يشعر بها الا وهى تنحدر على السلم ، يتبعها ذلك الذكر الضخم الأعور ، فى تحفز وتوتر وذكوره ، رافعا أذنيه ، مشرئبا برقبته ، وأعضاؤه كلها متصلبة ٠ ولم يكد الذكر يشب اليها وهو يموء مواء متهدجا ، وينشب أنيابه فى فراء رقبتها حتى هجم عليه السيد واستطاع أن يستخلص فلة ويحتضنها فى صدره ، ويصعد بها ثانية ، متجاهلا جهودها فى الخلاص والتملص ٠

وضعها على حجره ، وأخذ يربت شعرها الناعم الغزير حتى هدأت ٠٠

« ثم ماذا ؟ يا ست فله

ثم ماذا ؟

هل ستنحدرين الى العبث المتلف يا ست فله ؟

كنا عاقلين ومؤدبين نحيا فى سعادة

ماذا يملك لك ذلك الخنشور الأعور ؟

ماذا عنده لك يا ست فله ؟

أهو يقدم لك الحليب الدافىء والبقسماط ؟

هل يملك لك النظافة والايواء ؟
انه ضائع صعلوك متشرد
ما لك وهؤلاء يا ست فله ؟
انه سفاح قاتل مشوه
مالنا نحن والسفاحين المجرمين
نحن فى حالنا يا ست فله
أنا لا أقصد شيئا
أنا أريد أن أحميك
أنت غريرة ساذجة يا ست فله
لا تعرفين ما يضرك مما ينفعك
وأنا أهديك ٠٠ أنا مجرب
جربت يا ست فله
هل تشكين فى حبى لك ؟
لماذا تغافلينني وتتسللين
يا ست فله ؟

* * *

وأصبح ذلك الذكر الخنشور غريما للسيد اسكندر ٠٠ يحمل له ما يحمله لأى غريم من الغيظ المكبوت والحقد ٠٠ يتألم لمرآه ، ويشعر أمامه ذلك الارتباك النفسى الذى يستشعره أمام أى غريم عدو من البشر ٠

لم يتوان عن التردد ذلك الذكر الأعور رغم طرده المتكرر ٠٠ هواؤه على أنواعه ، من مناجاة الى طلب صريح كان يتسلل الى مسمع السيد فتهب فى أعماقه عاصفة الحقد والغيرة والغضب ٠

منذ أن فرت فلة ، كان السيد يحرص على أن يحبسها فى حجرة من الحجرات حتى لا يمكنها من أن ـ تتسلل حينما يفتح الباب ٠٠ كان يسمع أظافرها وهى تعالج المنافذ ٠٠ تخمش الباب ، وتتعلق مخالبها أسفله ، تحاول أن تمد رجليها من تحت عقب الباب ، وتجذبه اليها فى محاولات يائسة وتشنج صلب ٠٠ تنشب أظافرها فى عقب الباب وتغرزها ثم تجذبها حتى لتكاد تنقلع من أصابعها الملتصقة ثم تأخذها ـ أحيانا ـ موجة جنونية من الموء فكان يضطر لاطلاقها فى كثير من الأحيان ٠

وتربص لهذا الذكر العنيد الصفيق

القـــذر ... وخرج اليه بهراوته ذات يـــوم ، لم يفر القط حين رآه .. بل تململ فى كبرياء ، ونظر الى الرجـــل نظرة مغيظة محتقرة ، كهربت أوصاله .. كأنه يعلم كل شىء .. ويعانده ، يريد أن ينتصر عليـــه ، وأن يدحره ويذله ، ويسلب منـــه القطة العزيزة بعينه هذه القاسية ، وكبريائه وصلفه .. ونبضت شراييـنـه بحنق كالنار ، واشتعلت دماؤه وصعدت الى رأسه .. لم ير الدنيـــا ولم يشعر الا بانتفاض خيوط الدم فى اضطرامهـــا المتمرد ، ورفع الهراوة وهـــوى بهـا على رأس القط بكل قوة الغيظ والحقد والغيرة .

رفع القط اليه عينا مفترسة وحشية محتضرة وانقلب على الارض يموء مواء الموت ..ماء مرتين بصوت مرتفع مذعور غـــاية الـــذعر ... وقام يحـــاول الفرار فلم يستطع اذ انقلب مرة أخرى .. قام على سيقانه وحاول أن يمضى فتعثر تعثر السكران وهوى مرة أخرى وهو يخرج صوتا هو الى الصراخ الآدمى أقرب .. أخذ يدور على نفسه دورات وحشية مذهولة محتضرة وذيله مقوس منتفش كأنه مخنوق .. له بشاعة حية ضارية ذات صل .

داخل السيد الرعب الحقيقى من رؤيا الموت ، وسماع مواء القط وهو فى النزع الأخير ، ودورانه الوحشى الرهيب ، فرفع هراوته مرة ثانية ، بقوة الرعب هذه المرة ، وهشم عظام القط تهشيما ٠

مرت أيام بعد ذلك ، شابت فيها حركات السيد ولفتاته شائبة من الهوس ، تنزو من سلوكه نزوات الهياج وانفلات الضبط ، وأصبح مهموما لا يدرى لهمة سببا مضبوطا ، وتكاثرت عليه أطياف بغيضة لحوادث مرت وتركت فيه آثار جراح ورضوض نفسية ، وفى روحه ندوب أظفار وأنياب ٠٠ والتصق مواء القط المقتول بأجهزته الحسية ، فصار يسمعه بلا انقطاع ٠٠ كما تعلق رائحة قوية نفاذة بثوب ، لا تزول منه أبدا ٠٠ كان ذلك المواء ٠ ولم يعد اسكندر يعبأ كثيرا بالهزة التى أصابت قطته ، لكنه كان يمنعها من الخروج باصرار وتحكم ٠

ذات يوم عاد ٠٠ فتح الباب ، لم يسمع حركة ولا صوتا ، وفتح جميع الابواب ٠٠ لم يجد القطة ٠٠ اضطراب السيد ، واضطربت حركاته ، وصار فى بحثه عنها يخبط الاثاث ، ويوقع ببعض الانية الى الأرض ٠٠ نظر فى كل مكان ، وكل منفذ ، ولم يجد شيئا ٠

استنفد البحث طاقته حتى كل ، فوقف يلتقط أنفاسه ٠٠ أصيب بالخذلان والحبوط ، فزحف الى الباب الخارجى أخذ يصعد نظره ويصوبه فى السلم ٠٠ كان الصمت له ثقل زئبقى على حواسه ٠٠ صمت ملىء بالمبهمات والألغاز والاسرار ، أخذت تتراكم على على السيد اسكندر ٠٠ ومواء القط المقتول يطفو على مشاعره جميعا ،

مكث السيد غير قليل على بابه المفتوح حتى فرت دميعات من عينيه ٠٠ أخيرا تراجع كجيش مندحر منسحب خسر المعركة الفاصلة الأخيرة ، وانهزم وتراجع الى الشقة يتمتم وهو لايشعر ٠

« حتى انت

يا ست فله »

دخل الى حجرته لا يلوى على شىء ، وهناك وجد صورته فى مرآة الدولاب ٠٠ صار يقترب ويقترب ويتفرس فى صورته المهوشة ٠٠ ومنظاره القاتم المستدير الذى يخبىء نصف وجهه الضامر المضغوط ٠٠ اقترب حتى أحس بصورته احساسا حادا وطفق ينظر الى شبحه المتهدم المخذول ٠

يعجبك هذا ؟

يا سيد اسكندر

لقد فرت

فرت يا سيد اسكندر

أكنا نمنع عنها شيئا
هل أسأنا اليها فأغضبناها ؟

لماذا فرت ؟

لماذا يا سيد اسكندر ؟

أهذا يرضيك ٠ ؟

يرضيك أن تفر

هى الأخرى ٠٠٠ ؟

ومضى على ذلك النحو ، يتساءل ، ويتأمل ٠٠٠